معروف الرصافی محلّل اجتماعی للفقر والحرمان

إسماعیل نادری*

الملخص

ولد الشاعر معروف الرصافی سنة ۱۸۷۵م ببغداد، إنّه لما کبر ونضج أدبه حاول أن یشارک آلام مجتمعه؛ فالکثیر من أجمل قصائد الرصافی تتحدث عن المسائل الاجتماعیة ولاسیما الفقر والحرمان، حتی لقب بشاعر البؤساء، وهذا یرجع إلی أسباب أهمها هی: السبب النفسانی، بیئة الرصافی، وحساسیّته؛ ما کان الرصافی من الذین رأوا الفقر والحرمان فی المجتمع فبدل أن یحلّلوهما تلاعبوا وأمحوا صورة المسألة، بل بحث عن أسبابهما وهی: الجهل، العادات البالیة، والتقالید الموروثة الموهنة للإرادة، الإهمال والتواکل والتخاذل، والاستعمار؛ وأری الناس طرق مکافحة الفقر وهی: کسب العلم ، الإحسان من جانب الأغنیاء، بث روح التعاون فی المجتمع، وعدم الإسراف والاقتصاد فی الحیاة.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

الکلمات الدلیلیة: معروف الرصافی، الفقر والحرمان، المجتمع.

*. عضو هیئة التدریس بجامعة آزاد الإسلامیة فی علی آباد کتول – أستاذ مساعد.
Esmailnaderi@yahoo.com

تاریخ الوصول: ۱۳۸۹/۵/۱۰هـ. ش تاریخ القبول: ۱۳۸۹/۱۰/۱هـ. ش

المقدمة

ولد الشاعر معروف الرصافى سنة ١٨٧٥م ببغداد حيث أكمل دراسته فيها تحت تعليمات أساتذة كالشيخ محمود شكرى الآلوسى. (بركة، ٢٠٠٥م، مجلة مفكرة الإسلام) وهو الذى قال له: «سيكون لک يا معروف شأن فيما بعد، فإن كانت الكرخ تفتخر بمعروف الكرخى فما أحرى الرصافة بأن تفتخر بمعروف الرصافى.» (زكى، ١٩٤٥م: ١٩۶)

انتقل إلى القسطنطنية والقدس إلا أنّه عاد بعد إتمام دراسته إلى وطنه وعمل كنائب لرئيس لجنة الترجمة والتعريب ثم انتخب عضوا فى مجلس النوّاب خمس مرّات مدّة ثمانية أعوام. (الأعظمى، ٢٠٠١م: ١٥٨) وعندما قامت ثورة رشيد عالى الكيلانى ببغداد فى أوائل الحرب العالمية الثانية نظم أناشيدها وكان من خطبائها ولما فشلت عاش فى شبه عزلة من الناس إلى أن توفّى فى بيته ببغداد سنة ١٩۴۵م. (الفاخورى، ٢٠٠٢م: ۴٨٧) مصابا بالفقر الذى عالجه فى شعره الممتاز بمتانة اللغة ورصانة الأسلوب.

كثر همّ الشعراء المعاصرين إلى هموم الشعب وطموحاتهم، والرصافى كان من أوائل الطليعة الواعية التى تفاعلت مع آمال الشعب، وعنى عناية خاصة بقضاياهم الاجتماعية والسياسية، ولاسيما الفقر والحرمان لأنّه منذ أن فتح عينيه رأى نفسه ومجتمعه فى الفقر والحرمان يتألم تألما شديدا منهما، فحاول أن يحلّ هذه المشكلة كمحلّل اجتماعى حاذق، وهذا المقال توضيح مسلكه ولم يتطرق ناقد آخر إلى هذا الموضوع من قبل إلا أنّ هناک عددا كثيرا من الكتّاب والنقاد تكلّموا عن الرصافى فى آثارهم، واطّلع راقم هذه السطور على بعضها، منها أعيان الزمان وجيران النعمان فى مقبرة الخيزران، لوليد الأعظمى ومقالة معروف الرصافى ..وقصيدته يوم الفلوجة، لمحمد بركة والرصافى وتفكيک النظام الثقافى، لناظم عودة.

حاول الرصافى فى شعره أن يشارک آلام مجتمعه إلا أن الأدب التقليدى سدّ أمام المشاركة، فثار عليه آخذا الشعر من قصور الملوک والحكّام إلى عالم الشّعب، وتاركا التعبير لحسّه ولمشاعره ولذوقه وفكره فتدفّق أدبه من الجمود وخرج للحياة يتلمس

منها موضوعاته الاجتماعية.

فالكثير من أجمل قصائد الرصافی تتحدث عن المسائل الاجتماعية ولاسيما الفقر والحرمان واليتم وافتقاد الطفل لحنان الوالدين، مثل اليتيم فی العيد والأرملة المرضعة وسواهما حتی لقّب بشاعر البؤساء، وهذا يرجع إلی أسباب أهمها هی:

١. السبب النفسانی:

كان والد الرصافی كثير التغيب عن الدار لذلک عاش الشاعر سنواته الباكرة مع أمّه وحيدا، فنجده يتحرق قلبه حبا لأمه فی شعره ولاسيما حين غادر العراق أنشد لأمه:

وطفقــت أذكــر العــرا ق فعــاد صفــوی ذا كدور
وذكــرت مــن تبكــی هنا ک علــی بالدمــع الغزيــر
يــا أم لا تخشــی فــإنّ الله يــا أمــی مجيــری
ودعــی البــكاء فــان قلـ ـبی من بكائک فی سعير

(الرصافی، ٢٠٠٢م: ٣٠٦)

ولانجده يتكلم عن أبيه أبدا فی شعره، فهو أحسّ بنفسه مباشرة طعم اليتم والفقر والحرمان فتكلّم عنها كثيرا.

٢. بيئة الشاعر:

البيئة هی المربية الأولی للشاعر الرصافی، هی الأم التی يخفض لها جناح أدبه، ولـها دور كبير فی شعره لأن حاله حال أی إنسان آخر يتأثر بما حوله، فهو لم يأت من كوكب آخر لذلک تكلّم فی شعره عن حال أكثر من ثمانين بالمئة من سكان العراق الذين كانوا يعيشون فی حالة الفقر والبؤس؛ وجهد مبلغ جهده لإسعاد المجتمع بتصوير حالة الفقراء والمحرومين واليتامی إثارة لإحساسات الآخرين لمعالجة دائهم، فاحترق حزنا كالشمعة التی تحترق لتنير الطريق لمن حولها، لأنه كان يعلم إذا تجرّد من الإنسانية والأخلاق، فقلمه يصبح شعره عبارة عن مهاترات عقيمة.

٣. حساسيّة الشاعر:

الرصافی شاعر إحساسیّ فی أعلی درجات الإحساسات بحيث مجرّد رؤية

الماساويات كانت تثير إحساساته وتُحزنه كثيرا، فكان يتمنّى إن لم يكن يراها، أنظروا إلى ما أنشد بعد رؤية تلك الأرملة المرضعة كيف تثير العواطف لمساعدتها:

لقيتهـا ليتنى ما كنـت ألقاها تمشى وقد أثقل الإملاق ممشاها
أثوابهـا رثـة و الرجل حافية والدمع تذرفه فى الخد عيناها

(المصدر نفسه: ۶۳۳)

فقد كانت تلك البائسة تجرّ قدميها فى التثاقل وبطء يشدّها الفقر إلى عالمه بلارحمة ولاشفقة:

بكت مـن الفقر فاحمرت مدامعها وبات كالـورس من جوع محياها
المـوت أفجعهـا والفقـر أوجعها والهـمّ أنحلهـا والغـمّ أضناهـا
هذا الذى فى طريقى كنت أسمعه منهـا فأثّر فى نفسـى وأشـجاها
حتـى دنـوت إليها وهى ماشـية وأدمعى أوسعت فى الخدّ مجراها
وقلت: يا أخـت مهلا إننى رجل أشـارك الناس طرّا فـى بلاياها
سمعت يا أخت شكوى تهمسين بها فـى قالة أوجعت قلبـى بفحواها

وهو فى آخر القصيدة يدعو بالكناية الناس إلى الإنصاف والمرحمة والإحسان إلى مثل تلك الأرملة فى المجتمع:

لو عمّ فى الناس حسّ مثل حسّک لى ما تاه فـى فلوات الفقـر من تاها
أو كان فى الناس إنصاف ومرحمة لم تشـک أرملـة ضنـكا بدنياها
هـذى حكاية حـال جئت أذكرها وليس يخفى على الأحرار مغزاها
أولى الأنـام بعطف النـاس أرملة وأشرف الناس من فى المال واساها

ما كان الرصافى من الذين رأوا الفقر والحرمان فى المجتمع، فبدل أن يحلّوهما تلاعبوا وتشاغلوا وأمحوا صورة المسألة، بل بحث عن أسبابهما وعللهما وطرق مكافحتهما.

منشأ الفقر والبؤس فى رأى الرصافى

عمل الرصافى كعالم اجتماعى ومحلّل اجتماعى يرى الناس والمجتمع؛ علل الفقر ثم

یعلمهم طریق مکافحته ومن أهم تلک العلل فی رأی الرصافی هی:

١. الجهل:

یری الرصافی أن العلة الرئیسة للفقر والحرمان فی المسلمین عامة، والعراقیین خاصة هو الجهل والتعصّب المنتج منه، الجهل بوّابة الفقر والبؤس لأنّه یستر علی الواقع ولایسمح للناس أن یروا الواقعیة کما هی، ومن یعش عن إدراک الواقعیة یتعصب علی ما علیه، فراح یندّد مرجع التقهقر والتخلف، یعنی الجهل والجاهلیین فی أشعاره، أنظر إلی هذین البیتین کیف یتکلم فیهما عن الجهل الذی شبهه برائحة الثوم الکریهة التی یفضح الإنسان:

ما أقبح الجهل یبدی عیب صاحبه　　للناظرین وعن عینیه یخفیه
کذلک الثوم لم یشممه آکله　　والناس تشتمّ نتن الریح من فیه

(المصدر نفسه:٤٢٠)

وفی أبیات أخری، استهزئ جهل العرب، واستنهضهم عنه بسخریة واضحة:

یا قوم لاتتکلموا　　إن الکلام محرّم
ناموا ولا تستیقظوا　　ما فاز إلا النوّم
وتأخروا عن کل ما　　یقضی بأن تتقدّموا
ودعوا التفهم جانبا　　فالخیر ألا تفهموا
وتثبتوا فی جهلکم　　فالشر أن تتعلموا

(المصدر نفسه: ٥٤٢ و٥٤٣)

وفی قصیدة إیقاظ الرقود، أیضا یطلب من العراقیین أن یترکوا الجهل الذی أذلّهم وجعلهم یعیشون کالوحوش فی أخس عیش:

رَکدتم فی الجهالة وهی تمشی　　وعشتم کالوحوش أخس عیشِ
أما فیکم فتی للعز یمشی　　تبارک من أدار بنات نَعشِ
وصفدکم بأصفاد الرکودِ

(المصدر نفسه: ١٩٨)

٢. العادات والتقاليد:

حارب الرصافى العادات البالية والتقاليد الموروثة التى قضت على العزائم وحالت دون التقدّم والتطوّر، ورأى فيها نظاما ثابتا لايماشى الحياة، ورأى أن التقدم لايتمّ إلا على رفات التقاليد الاجتماعية التى تجعل للتّذلّل والتزلّف أعظم قيمة للنجاح فى الحياة، فراح يحاربها بسخط وانفعال وثورة وتهكّم، لأنه كان شديد التعلّق بالتقدّم والنهوض، إلا أنّه ما كان يتنكّر للتقاليد النافعة والتمسّک بتعاليم الشّريعة، يرى الإسلام لايعوق التقدم بل يساعد عليه لأنّ الأجداد تقدّموا به فى الماضى:

يقولـون فـى الإسـلام ظلمـا بأنّه ... يصـد ذويـه عـن طـرق التقـدم
فـإذا كان ذا حقّـا فكيـف تقدمت ... أوائلـه فـى عهدهـا المتقـدم
وإن كان ذنب المسـلم اليوم جهله ... فماذا على الإسلام من جهل مسلم
لقد أيقظ الإسـلام للمجـد والعلى ... بصائـر أقـوام عـن المجـد نـوم
وأطلـق أذهان الورى مـن قيودها ... فطـارت بأفكار علـى المجد حوم

(المصدر نفسه: ٥٣٠)

٣. الإهمال والتواكل والتخاذل:

رأى الرصافى الإهمال والتواكل والتخاذل من آفات تطور المجتمع، لأنّها تهدم حيويته وتودى به إلى الهلاک والتأخّر فى ميدان الحياة الفسيح! وعكس ذلک النشاط فهو حياة وحياة، وعمل وعمل، فيدعو الناس أن يهبّوا من رقدتهم و أن يخلعوا ثياب التواكل والإهمال، وهو يأسى لحالهم إذ يرى ثرواتهم بسبب الإهمال والتواكل والتخاذل تتبدّد وتتلاشى وتذهب سدى دونما إدارة رشيدة أو حسن استغلال:

لاتسـتنيموا للزمـان تـوكّلا ... فالدّهـر نـزّاء لـه وثبـات
فإلى متى تسـتهلكون حياتكم ... فوضـى وفيكـم غفلـة وأنـاة
إنّ البـلاد إذا تخـاذل أهلهـا ... كانـت منافعهـا هـى الآفـات

(المصدر نفسه ،ص ١٣٥)

۴. الإستعمار:

حکمت بریطانیا العظمی الکثیر من دول العالم مما جعلها تأخذ بحق مسمی الإمبراطوریة التی لاتغیب عنها الشمس، والرصافی کان مدرکا لحیلها الاستعماریة ومن أهمها سیاسة: «فرّق تسد» الذی اعتمده العرش البریطانی للتغلغل فی سائر الدول. (الدروبی، ۱۹۵۸م: ۱۰۳) فدعا الرصافی العرب إلی الوحدة یقول:

بنی العروبــة هبّوا مــن مراقدکم ... إلی متی نحن نشکو صولة النوب
فقد لعمــری افترقنا شــرّ مفترق ... وقد لعمــری انقلبنا شــرّ منقلب
أما تغارون یــا أهل الحفاظ علی ... حقّ لکــم بید الأعــداء مغتصب
لاتکتفــوا بافتخار فــی أوائلکم ... فنشــوة الخمر لاتغنی عن العنب
بل انهضوا للمعالــی مثل نهضتهم ... واستعصموا باتحاد محکم السبب

(الرصافی، ۲۰۰۲م: ۷۶)

ومن حیلها الأخری صنع حکومات لاتأتی بعمل ما دون رغبة سادتها الإنجلیز ومشیئتها، فمن البدیهی أن یندّد الرصافی بالوضع الجدید، ویسخر من الحکومة التی تتصرّف فی الظاهر کأنّها حکومة ولکنّها فی الواقع هی مجلس دمی بأیدی الإنکلیز، تحقق منافعها ومقاصدها الاستعماریة:

وإذا تســأل عمّــا ... هــو فــی بغــداد کائــن
فهو حکم مشــرقیّ الضــ ... ــرع غربــیّ الملابــن
وطنــی الاســم لکــن ... إنکلیــزی الشناشــن
عربــی أعجمــیّ ... معــرب اللهجــة راطــن
فیــه للإیعــاز مــ ... ـن لنــدن بالأمر مکامن
هــو ذو وجهیــن وجــ ... ــه ظاهــر یتبــع باطن
قــد ملکنــا کل شــیء ... نحــن فــی المظاهر لکن
نحن فــی الباطن لا نملــ ... ــک تحریــکاً لســاکن
أفهــذا جائــز فــی الــ ... ـغرب یا مستر کراین؟!..

(المصدر نفسه: ۵۶۹)

وقال الرصافی عن الوزراء الذین لا إرادة لهم ولا یبالون إلا بحفظ کراسی الوزارة والراتب:

فوزیـر القـوم لایعمل　　مـن غیـر إشـارة
وهـو لا یملـک أمـراً　　غیـر کرسـی الـوزارة
یأخـذ الراتـب إمـا　　بلـغ الشـهر سـرارة
ثـم لایعـرف مـن　　بعـد خـراب أم عمارة

(المصدر نفسه: ۳۲۸)

ومن یطالع دیوانه یجد العدید من القصائد التی سخر فیها تلک الحکومة، ومنها قصیدته المشهورة حکومة الانتداب، التی قال فیها بعد تشکیل الحکومة ووضع الدستور وتغییر علم العراق حیث یقول:

علـم ودسـتور ومجلـس أمة　　کل عن المعنی الصحیح محرف
أسـماء لیس لنا سوی ألفاظها　　أمـا معانیهـا فلیسـت تعرف
من یقـرأ الدسـتور یعلـم أنه　　وفقاً لصک الانتـداب مصنف
من ینظر العلـم المرفرف یلقه　　فی عز غیـر بنی البلاد یرفرف
مـن یأت مجلسـنا یصدق أنه　　لمـراد غیـر الناخبیـن مؤلف
من یـأت مطرد الـوزارة یلفها　　بقیود أهل الاستشـارة ترسف

(المصدر نفسه: ۴۱۶ و۴۱۷)

طرق مکافحة الفقر فی رأی الرصافی

شأن الرصافی شأن أکثر الشعراء والکتّاب فی القرن التاسع عشر من حیث الاهتمام بحالة أمّتهم وبلادهم، فقد فتح عینیه علی العالم الأوربی، ورأی ما وصل إلیه فی مضمار الحضارة والرقیّ، یقارنه بحالة مجتمعه الیائسة التی تتخبّط فیها، فآلمه ذلک الفقر والحرمان، فبدأ بإیقاظ المجتمع ودفعه إلی الأمام وعمل علی معالجته بإرائة طرق مکافحته فی الموارد التالیة:

١. کسب العلم:

العلم فی نظر الرصافی هو سبیل النجاح فلا حیاة اجتماعیة مزدهرة فی ظلّ الجهالة والأوهام، ولا حیاة سعیدة مع التعامی والتخلّف والإحجام؛ العصر عصر العلم والشّرق کان قدیما منارة العالم وقلبه، فما باله یتخبّط فی أوهامه الیوم وما باله ینظر إلی الغرب الذی بلغ ما بلغ بالعلم نظرة الذلیل الذی لایستطیع التحرّک والعقیم الذی کاد عقله یتوقّف عن التّفکیر.

العلم حیاة ونشاط وحجر الأساس لازدیاد ثروة المجتمع ولنجاته من الفقر، والرصافی یرید نجاة المجتمع من الفقر، فیحثّ الشاعر علی طلب العلم والجدّ فیه والمثابرة علی تحصیله، لأنّه وحده یرفع من شأن الأفراد والأمم، ویبنی لهم مجدهم، یرفع من مکانتهم، یغنی فقیرهم، هو الفیض الذی تحیا به القلوب، والسلاح الذی به یقهر الجهل، والنور یهتدی به فی الظلام فسقیا للعلم ورعیا لرعاته وطلابه ومعلمیه ومعاهده:

ما أقدر العلم إنّ صیحته ... یمعن منها الخمیس فی هربه
من تخذ العلم عدّة لوغی ... أغناه عن درعه وعن یلبه
فانتدب العلم للخطوب فما ... خاب لعمری رجاء منتدبه
العلم کالنور بل أفضله ... ما أفقر النور أن یشبّه به
وإنما العلم للنهی عصب ... والحسّ فی الجسم جاء من عصبه
سقیا ورعیا لروض معهده ... وطالبیه وقارئی کتبه

(المصدر نفسه: ١١٥ و١١٦)

وفی مکان آخر یبرز أهمیة العلم الذی به یقوی الضعیف ویغنی الفقیر شریطة أن یکون العلم مقرونا بالخلق الحسن والضمیر السلیم:

إذا ما العلم لابس حسن خلق ... فرج لأهله خیرا کثیرا
وما أن فاز أغزرنا علوما ... ولکن فاز أسلمُنا ضمیرا

(المصدر نفسه: ٢٦٦ و٢٦٧)

والرصافى يطلب اقتران العلم بالعمل، لأنّ العلم الذى لايقترن بالعمل كالشجرة بلاثمر: (الفاخورى، ۲۰۰۲م: ۴۹۰)

أبنوا المدارس واستقصوا بها الأملا حتّـى نطاول فـى بنيانهـا زحلا
لا تجعلـوا العلم فيهـا كلّ غايتكم بل علّموا النّشء علما ينتج العملا

۲. الإحسان:

كان الرصافى أشدّ الناس اهتماما لشأن الفقراء لمّا رآهم فى حالة من الشقاء، يزرحون تحت وطأة الأغنياء وتنافسهم فى جمع المال وكسب المناصب، ولمّا رآهم لايكادون يعرفون من الحياة إلا إرضاء طمع الأغنياء والأقوياء، وذلک فى حالة أنهم ينظرون إليهم بازدراء واحتقار فربأ الشاعر الناس عن النظر إليهم بعين الازدراء والاحتقار، لأنّ فى هذا العمل زيادة فى شقاء الفقير وبؤسه وعنائه، يدعوهم إلى أن يرحموهم، يعينوهم، يمدّوهم بالمال الذى ما جمعوه ولاكنزوه إلا من الفقراء من كدّهم وعنائهم وما جاع فقير إلا بما متّع به غنىّ:

أيّهـا الناظـر ذا الفقـ ـربعيـن الازدراء
كـن إذا كنـت غنيّـا راحمـا للفقـراء
أنت لولاهـم لما أصـ ـبحت بعـض الأغنياء
إنّ أهـل الفقر يشـقو ن لأربـاب الشـراء
إنّهم يسـعون للمشـ ـريـن سـعى الأجراء
إنّهـم قـد مهنـوا النا س بكـدّ، وعنـاء
وكفوهـم كلّ شـغل منتـج كلّ رخـاء
أغنيـاء الناس عاشـوا بمسـاعى الفقـراء

(الرصافى، ۲۰۰۲م: ۱۱ و۱۲)

ولكن الرصافى كان يعلم أنّ الأغنياء أحبّ شىء عندهم المال والثروة، فلايرضون بالإحسان إلا بعد غليان عواطفهم الإنسانية، لذلک استفاد من المقايسة بين حالة الفقراء والأثرياء فى أيام الفرح والأعياد، يطلب إثارة العاطفة الحزينة والشفقة على المساكين،

مثلا أنظروا إلى قصيدة اليتيم فى العيد، كيف يصوّر حال المعيّدين فإذا هم فى هرج ومرج، هذا تبدو آثار التعمة والفرح عليه وهذا آثار البؤس والفقر، وكيف يقرع الطفل الفقير على الطبل الذى ينادى الناس بأنّه فقير يحتاج إلى معونتهم، والناس يفرحون من نداء هذا الطبل، ويعتنون بصوت الطبل غافلين عمن يطربهم:

أطلّ صباح العيد فى الشرق يسمع ضجيجا بـه الأفراح تمضى وترجع
صباح بـه تغدو الحلائـل بالحلى وترفضّ مـن عين الأرامـل أدمع
ألا ليـت يـوم العيـد لا كان إنّـه يجـدّد للمحـزون حزنـا فيجـزع
وفى الحـىّ مزمار لمشـجى نعيره غـدا الطبـل فـى دردابـه يتقعقع
فجئت وجوف الطبل يرغو وحوله شـباب و ولـدان عليـه تجمعـوا
لقـد وقفـوا والطبـل يهتـزّ صوته فتهتـزّ بالأبـدان سـوق وأكـرع
ترى ميعة الإطـراب والطبل هادر تفيـض وفـى أعصابهـم تتميّـع
وقفت أجيل الطـرف فيهم فراعنى هنـاك صبـىّ بينهـم مترعـرع
علـى كثر قرع الطبل يقرع سـمعه فلم يلـف رجعا للجـواب فيرجع
يـردّ ابتسـام الواقفيـن بحسـرة تـكاد لهـا أحشـاؤه تتقطـع
ويرسـل من عينيه نظـرة مجهش ومـا هـو بالباكـى ولا العين تدمع
لـه رجفـة تنتابـه وهـو واقـف علـى جانـب والجوّ بالبرد يلسـع
يرى حوله الكاسين من حيث لم يجد علـى البـرد مـن بـرد بـه يتلفّع
فكاد ابتسـام القوم كالثلج قارسـا لدى حسـرات منـه كالجمر تلذع

(المصدر نفسه: ۳۹۴)

إنّما لم يكتف الرصافى بإثارة العواطف بل تكلّم عن رفعة درجة المحسنين تشويقا للنّاس إلى الإحسان، وقال إنّ المحسنين بصنيعهم يستعبدون الأحرار لأنّهم يخففّون من عناء المعوزين والفقراء، والإحسان من أبرز ما حثّت الديانة عليه، والمحسن قريب إلى الله وإلى النّاس:

لـو كنت أعبد فـى ذى الدنى لعبدت من دون الإله المحسنا

فی مجتنی غرس الخليقة لم أجد غرسا سوی الإحسان حلو المجتنی
هو فی الخليقة ذو عجائب سرّها أعيـا اللبيـب، وأعجـز المتفطّنا
بينـاه يغـدو للنفـوس مقيّـدا بالحـبّ يطلـق بالثناء الألسـنا
يسـتعبد الأحرار وهـو صنيعهم ويـردّ بغـض المبغضيـن تحنّنا

(المصدر نفسه: ۵۷۸)

۳. التعاون:

يعتقد الرصافی أنّ التعاون لازمة من لوازم الحياة الاجتماعية بل هو أبرز لوازمها، وهو شعور الجميع بمسؤولية بعضهم عن بعض، وأن كل واحد منهم حامل لتبعات أخيه ومحمول عليه، يسأل عن نفسه، ويسأل عن غيره، يمدّ يد المعونة فی حاجة المحتاج وإغاثة الملهوف وتفريج كربة المكروب، وتأمين الخائف، وإشباع الجائع، والمساهمة العملية فی إقامة المصالح العامة؛ وهو قانون من قوانين الاجتماع الراقية، وعنصر من عناصر الحياة الطيبة، بل هو الأساس فی حياة الأمم وبقائها عزيزة كريمة لها هيبتها وقائمة بواجبها علی النحو الذی يحقق لها أمجادها ويفرض علی الدنيا احترامها:

يعيش النـاس فی حال اجتماع فتحـدث بينهـم طـرق انتفاع
وتكثـر للتعـاون والتفـادی علـی الأيـام بينهـم الدواعـی
ولو سـاروا علی طـرق انفراد لمـا كانوا سـوی همـج رعاع
وإن صفـرت يدّ مـن ريع زرع أعيـد ثراؤهـا بيـد صنـاع
بذاک قضی اجتمـاع النّاس لمّا أن اعتصمـوا بحبـل الاجتماع
يسـاند بعضهم فی العيش بعضا مسـاندة ارتفـاق وانتفـاع
ولـم يصلح فسـاد النـاس إلا بمـال مـن مكاسـبهم مشـاع
تشـاد بـه الملاجـئ لليتامـی وتمتـار المطاعـم للجيـاع

(المصدر نفسه: ۳۸۹ و ۳۹۰)

۴. عدم الإسراف والاقتصاد:

للاقتصاد أهمية كبـری، وأثر بالغ فی حياة الإنسان، وتحقيق رخائه النفسی

والجسمی، والإسراف والإفـراط فـی المباهج واللذات، أشیاء کلها تدل علی سفاهة العقل وضعف فی النفوس، قد أماتت القیم، وأثارت المفاسد، وولدت فراغاً عریضاً فی النفوس، وأمراضاً اجتماعیة من فقر وبطالة وبلادة وتخمة فی العقول وترف استنزف الذوق الإنسانی والحس الرفیع، فأدرک الرصافی ضرورة التوسط والاقتصاد فی الحیاة وعدم الإسراف فی المال الذی یتکاثر فلسا فلسا، حتی یصیر ثروة کبیرة ینفق منها علی الفقراء والمحتاجین:

فاقتصد فی موارد العیش فلسا　　کلّ یـوم مـن طائـل النفقات
واجعل الفلس فوق فلس تجده　　بعد حین عونـا علی الأزمات

(المصدر نفسه: ۱۲۷)

ولیس کلامه متجها إلی الأغنیاء فقط، بل یدعو الفقراء أیضا أن یحتفظوا بالقرش الأبیض لیوم الأسود، وفی مجمل القول حثّ العراقیین کلّهم علی المبادرة إلی التوسط والاقتصاد فی الحیاة الذی یعود نفعه علی الجمیع فی مواجهة الأزمات:

وادّخـره لیـوم نحـس تجده　　مسعدا مسـعفا علی الخیرات
واقصد الخیر فی اقتصادک حتّی　　لایـؤول الثـراء للإعنـات
لیس حسن الأعمال فی الناس إلا　　حسـن ما یضمرون من نیّات
فـدع الفعل کیـف کان حمیدا　　أو ذمیمـا انظر إلـی الغایات
حسـنات الأنام إن لم تکن ذا　　ت عموم ضرب من السـیّئات
یا شـباب العـراق هبّـوا إلیه　　وتوخّـوا بجمعـه البـرکات
إن تکونـوا اعتزمتم الأمر فیه　　فالبـدار البـدار قبـل الفوات

(المصدر نفسه: ۱۲۷ و۱۲۸)

النتیجة

وأخیرا نستنتج أن الرصافی أدی وظیفته أمام مجتمعه، لأنه شارک آلام مجتمعه وأخذ الشعر من قصور الملوک والحکّام إلی عالم الشّعب، وترک التعبیر لحسّه ولمشاعره

ولذوقه وفكره، فتدفّق أدبه من الجمود، وخرج للحياة يتلمس منها موضوعاته الاجتماعية، ومن أهمّ تلك الموضوعات الفقر والحرمان اللذان عالجهما فى شعره كمحلل اجتماعى حاذق، يذكر أسبابه أى الجهل، العادات البالية والتقاليد الموروثة الموهنة للعظم والإرادة، الإهمال والتواكل والتخاذل، والاستعمار؛ وفضلا عن هذا أرى الناس طرق مكافحة الفقر أى كسب العلم، الإحسان، التعاون، وعدم الإسراف والاقتصاد فى الحياة؛ فلا نبالغ إذا قلنا أنه فضلا عن شاعريته يكون عالما اجتماعيا خبيرا.

المصادر والمراجع

الأعظمى، وليد. ٢٠٠١م. *أعيان الزمان وجيران النعمان فى مقبرة الخيزران*. بغداد: مكتبة الرقيم.

بركة، محمد. ٢٠٠٥م. *مجلة مفكرة الإسلام*. مقالة معروف الرصافى وقصيدته يوم الفلوجة. لانا.

الدروبى، إبراهيم عبد الغنى. ١٩٥٨م. *البغداديون أخبارهم ومجالسهم*. بغداد: مطبعة الرابطة.

رجبى، توفيق. «*معروف الرصافى؛ وقفات فى حياته وأدبه*». فصلية التراث الأدبى. خريف ١٣٨٨ش. العدد٤. صص ٧٩-٧٣.

الرصافى، معروف. ٢٠٠٢م. *الديوان*. شرحه الدكتور يحيى شامى. بيروت: دار الفكر العربى.

زكى، محمد أمين. ١٩٤٥م. *مشاهير كرد وكردستان*. بغداد: مطبعة التفيض الأهلية.

الفاخورى، حنا. ٢٠٠٢م. *الجامع فى تاريخ الأدب العربى الأدب الحديث*. بيروت: دار الجيل.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی